

تجليات صور المرأة في ثلاثية فضيلة الفاروق من هندسة التخيل إلى جمالية التشكيل

The manifestations of the images of women in the trilogy of Fadila Al-Farouk, from the architecture of imagination to the aesthetic of formation

فهيم مزياني، جامعة باتنة 1، (الجزائر)، mezianifahim@gmail.com

تاريخ إرسال المقال: 08-01-2021 تاريخ قبول المقال: 17-02-2021

الملخص:

يهدف هذا المقال إلى معالجة مبحث هام طالما أسال الكثير من الحبر، وخلف وراءه جدلا واسعا، إذ اهتم به النقاد والدارسون على اختلاف مجالاتهم، تنظيرا وتطبيقا ضمن مباحث الأدب المقارن والسيما والأدب شعره ونثره..الخ، ونحن أخذنا على عاتقنا مهمة الكشف عن أحد المواضيع التي شكلت مادة دسمة لكتابات المبدعين، ألا وهو موضوع المرأة، وكيف انعكس ضمن النصوص السردية النسوية؛ أي كيف عالجت المبدعات في كتاباتهن قضية المرأة؟ وعلى أي جانب كان تركيزهن؟ وعلى هذا الأساس طرحنا الإشكاليات الآتية: ما هي تجليات التصوير اللغوي للمرأة في النصوص الروائية ضمن ثلاثية "فضيلة فاروق" كنماذج؟ وكيف انعكس ذلك على نصوصها دلاليا وسماتيا؟
الكلمات المفتاحية: الصورة؛ ثلاثية فضيلة الفاروق؛ السرد؛ التشكيل.

Abstract:

This article aims to address an important topic that has long asked a lot of ink, and left a wide debate behind it, as the critics and scholars of all fields took care of it, theorizing and applying it within the studies of comparative literature, semiotics, literature, poetry and prose..etc, and we took upon ourselves the task of uncovering one of the topics Which constituted a rich material for the writings of creative people, namely the issue of women, and how it was reflected within the feminist narrative texts; In other words, how did creative women address the issue of women in their writings? And on what side were they focused? On this basis, we raised the following problems: What are the manifestations of the linguistic representation of women in the narrative texts within the "Farouk Fadila" trilogy as models? How was this reflected in its semantics and attributes?

Key words : The image; Fadela Al-Farouq trilogy; narration; formation.

مقدمة:

احتفى النقد العربي المعاصر بقضايا نقدية كثيرة منها، قضية الصورة الأدبية، التي تعد من العناصر الأساسية التي تدخل في تشكيل الأعمال الأدبية شعرا كان أم نثرا. بدأت الصورة بصرية ثم تحولت إلى تشكيل لغوي، وتفرعت إلى تصنيفات حسب مجالات الاهتمام بها، لتصبح في العصر الحديث المكون الرئيس بل مركز اهتمام العالم خاصة في شقها البصري ضمن مباحث السيميولوجيا.. وهي كعنصر لا يمكن الاستغناء عنه تحضر في مختلف التشكيلات النصية شعرية كانت أم نثرية وهي بدورها تتألف من مكونات جزئية تحدد ماهيتها كما تعكس سمات كثيرة تتبع من ذاتها ومن الوحدات الخارجية التي تدخل في صميم تركيبها.

وقد تبوأ مكانة هامة في الدراسات الأدبية والنقدية المعاصرة بل أضحت في معظمها مدار الاهتمام، نظرا لكونها في نظر العديد من الدارسين مركز الشعرية وأساس التشكيل السردى أيضا لما تنسم به من تنوع وثراء على المستويات التكوينية والجمالية والدلالية. ولعل إدراك الكاتبات الجزائريات لأهمية هذا المكون وما له من مميزات تنعكس إيجابا عبر مساقات الكتابة لديهن، بالتالي، تحقيق النموذج الحلم الذي طالما سعين إلى تحقيقه.

ولعل من بين الروايات اللائي اهتمن بالصياغة الصورية "فضيلة الفاروق"، والتي كانت أعمالها محور دراستنا، نظرا لما تتوفر عليه من إمكانات تصويرية وطاقات إيحائية هائلة، وعلى هذا الأساس حاولنا الكشف عن أهمية مثل هكذا مواضيع، والتي تتخذ من أحد أركان الهرم المجتمعي مادة للدراسة والتحليل، وبالأخص إذا ربط بأحد أهم الوسائل التي يعتمد عليها العالم أجمع في أيامنا ألا وهي آلية التصوير ولكن في جانبها اللغوي عبر رصد واقع المرأة العربية عامة والجزائرية خاصة، وكذا الكيفية التي عكست بها الروائية هذا الواقع في مختلف تجلياته.

حاولنا الكشف عن أحد المواضيع الهامة، وتوير القارئ، وحثه على طرق جوانب ربما قل التطرق إليها، بالتالي، أردنا أن يكون موضوعنا هذا بمثابة الحافز نحو دراسات أخرى تقارب هذا الموضوع بالذات لما له من خصوصية على مستويات عدة. أما اختيارنا لبعض أعمال هذه الروائية دون غيرها فيعود إلى إعجابنا برواياتها والقضايا التي تطرحها.

من هنا انبثقت الإشكالية الخاصة بالبحث، والتي مفادها:

-كيف صورت الكاتبة المرأة الجزائرية في نصوصها الروائية؟ وقد اتبعنا المنهج التحليلي في عرض النماذج ومقاربتها مع الاستعانة بالتأويل لملامسة البنية العميقة للدلالات المضمنة في ثنايا النصوص الروائية محل الدراسة.

المبحث الأول: تجليات صورة المرأة في روايات فضيلة فاروق

اهتمت الرواية النسوية الجزائرية بالمرأة وقضاياها، ومن أهم الروايات الجزائرية اللواتي اهتمن بموضوع المرأة نجد الروائية "فضيلة الفاروق". التي جعلت من قضايا المرأة بؤرة كلامها، في مقابل تصوير الرجل وفق مبدأ المتسلط والقاسي والمتحكم وغيرها من الصفات.

تميزت الشخصيات الأنثوية البطلة في روايات "فضيلة" بميزة الضعف والخضوع للرجل الذي يعد المرأة أحد ممتلكاته الخاصة، وهذا ما أسهم في اعتبار المرأة على أنها مجرد جسد للمتعة، وقد يكون هذا أحد الأسباب لدخول بطلات "فضيلة الفاروق" في صراع مع المجتمع الذكوري المهيمن، الذي يسعى وبشتى الطرق لمحو هذا الحق للحفاظ على سلطاته، غير مبال بالأضرار التي يسببها للمرأة، تقول "فضيلة الفاروق" وهي تصف معاناة المرأة: « منذ العائلة ... منذ المدرسة... منذ الإرهاب كل شيء كان تاء للخل، كل شيء عنهن تاء للخل، منذ أسمائنا التي تتعثر عند آخر حرف، منذ العبوس الذي يستقبلنا عند الولادة، منذ أقدم من هذا، منذ الجوّاري والحريم، منذ الحروب التي تقوم من أجل مزيد من الغنائم، منهم... إلى أنا لا شيء تغير سوى تنوع في وسائل القمع وانتهاك كرامة النساء، ولهذا كثيرا ما هربت من أنوثتي»¹.

المطلب الأول: صورة الفتاة المراهقة:

المراهقة هي الفترة التي تلي الطفولة، تقع بين البلوغ الجنسي والرشد، وتعد « مرحلة من التحديات المثيرة، التي تتطلب التكيف مع التغيرات في الذات والأسرة وجماعة الرفاق وكذلك هي بالنسبة للآباء والمراهقين فترة من الإثارة والقلق والسعادة والمشاكل والاكتشاف والارتباك»².

فهي مرحلة جد حساسة يعيشها المراهقون في حياتهم وفيها يعتري الفرد فتى كان أم فتاة تغيرات، ينتج عنها نوعا من الاضطراب في العلاقات مع الكبار وخصوصا الآباء، فرغبة المراهق في الاستقلال أمر طبيعي ومظهر من مظاهر النمو، وتعد الفتاة أكثر الأطراف عرضة لذلك كونها أكثر ضعفا وأقل حرية من نظيرها الفتى، فتكبل الفتاة بجملة من القيود ما يجعلها تسعى للبحث عن حريتها بشتى السبل.

هذا التمييز في المعاملة بين الأولاد حول الفتاة إلى كائن رافض لملامحه الأنثوية، يسعى إلى التشبه بالصبيان في تصرفاتهم ظنا منها أنها بهذا التقليد قد تتال مبتغاها ولو على الصعيد الداخلي.

وتجلت هذه الصورة في بطلتي "فضيلة الفاروق" ضمن روايتيها "مزاح مراهقة" و" اكتشاف الشهوة". ففي الرواية الأولى نجد نموذجا للمراهقة "لويزا" التي كانت ترفض جنسها الأنثوي وتمتقته بسبب الكره الذي تكنه للرجال المحيطين بها، والسبب هو التمايز الحاصل بين الرجل والمرأة في المعاملة لهذا

باتت تحلم بأن تصبح صبيًا، وعليه حاولت محو معالم أنوثتها عبر قص شعرها الذي كانت تعتبره حائلا في طريقها، تقول: « وبمجرد وصولي أخذت مقصا، وجلست أمام المرأة، وقصصت شعري أقصر ما يمكن»³.

لم تكتفي بتقليد الصبيان في قصات شعرهم وحسب بل تجاوزت هذا التقليد لأبعد من ذلك وصولا إلى ارتداء ألبستهم والتصرف مثلهم، فكانت كل المقيّمات يحتمن خلفها إن تسلل غريب للحي الجامعي، فتخرج هي الأولى لتحدث الفوضى حتى ينتبه الحراس، وتلتحق بعدها الفتيات، فهي تمثل عنصر القوة بالنسبة لهنّ، كونها تحب التكر بالزي الذكوري، إذ تلبس سراويل الجينز وأحذية جلدية ضخمة تشبه أحذية الذكور، وبهذا تقف "لويز" في وجه الجميع، وتحارب حتى أنوثتها التي جعلتها نقطة ضعف، تقول: «سأكون مجنونة إذ تقبلت جسد الأنثى الغبي الذي يكبلني، لو كنت رجلا لقتلت الوغد... اليوم كنت باصيت، حكم عليا بالسجن، خيرا لي من هذه الإهانة»⁴.

هذا الموقف الذي تعرضت له "لويزا" جعلها تدرك أن جسد الأنثى قد عرضها لشتى أنواع الإهانات، فالمجتمع الجزائري يرى المرأة بأنها الحلقة الأضعف التي لا تملك الحق في التعبير عن رأيها والوقوف في وجه الرجل وهذا ما أدى بالرجل إلى صفع "لويزا" أمام الملأ.

إن "فضيلة الفاروق" من أكثر الكاتبات اللاتي نادين بالتخلي عن ملامح الأنوثة والتجرد منها، واعتبارها عائقا يمنع المرأة من المضي إلى الأمام لتحقيق أحلامها، لذا وجب التخلص منه، تقول على لسان بطلتها "لويزا": « ما أتعس أن يكون الفرد امرأة عندنا فكل طموحاته تتوقف عند تاء التأنيث»⁵.

ترى أن أحلامها وطموحاتها توقفت لأنها فتاة لا تملك الحرية في اتخاذ قراراتها لوحدها، إذ هي دائمة تابعة لكل ما يمليه عليها رجال العائلة. ذلك أن المرأة منذ ولادتها ينظر إليها بعين النقص من طرف المجتمع والعائلة، وها هي بطلّة رواية "اكتشاف الشهوة" هي الأخرى تتحدث عن رفضها لجنسها الأنثوي فتقول: « لم أكن فتاة مسالمة كانت رغبتني الأولى أصبح صبيًا، وقد آمني فشلي في إقناع الله برغبتني تلك، ولذلك تحولت لكائن لا أنثى ولا ذكر»⁶.

ونقول أيضاً: «كنت الصبي ذا الأظافر الطويلة والقدمين الوسختين والفتتان الذي يتمزق لسبب ما...»⁷.

نجد أن "باني بستانجي" من خلال هذا كله تسعى للانفصال عن الأنوثة، فهي كانت تود أن تحول من أنثى ضعيفة إلى رجل قوي. وذلك بسبب ما عاشته من ظروف اجتماعية قاهرة؛ فالرجل هو الأمر الناهي...، ما جعلها تتخيل نفسها كالصبي ذي الأظافر الطويلة، تقول: «كنت صبيًا مشوها، يخلق عالمه الخاص في أزقة قسنطينة القديمة»⁸.

إلا أن التغيرات الفيزيولوجية التي تطرأ على الفتاة، تضع نهاية حاسمة لأحلامها، إذ تصبح صدمتها الأكبر بتوسخ جسدها بمعالم الأنوثة، تقول "باني":
« وفي الثالثة عشر تماما، واكتشفنا أن أحلامي تتعثر ببروز نهدين صغيرين لي، بوجع يتكور ويكبر، ويضع مهنتي بإتقان»⁹.

تبدأ أحلامها فجأة بالانهيار والتلاشي ببروز علامات البلوغ التي جعلت أحلامها تخيب، فهي لم تكن تعتقد أن ما أصاب البنات سيصيبها في يوم من الأيام، واصطدامها بالواقع جعل أحلامها تبدو وهما، تقول: « الدم كان أحمر قانيا، والجرح كان في الوضع الذي أخجل منه، وكلما غسلت الدم النازف، ومسحته جيدا، عاد ونزف من جديد وغير ذلك كان الألم في أسفل بطني فظيعا، لم يصبني من قبل مثيلا له حتى في أقصى حالات الإسهال وفي الرابعة عشر من عمري، كنت واثقة أن ما أصاب البنات لن يصيبني في عمرهن، وقد عشت ذلك الوهم على طريقي»¹⁰.

اكتشاف البطلة لجسدها الجديد أثار فيها الكره والسخط لنفسها ولكل من أحاطوا بها، وأدخلها عالم الكآبة؛ لأن الصورة التي رسمتها لنفسها بدأت تتلاشى شيئا فشيئا والصبي الذي كانت تتمنى أن تصبحه يوما ما اختفى من مخيلتها. والتمايز الجنسي دفع البطلتان إلى أن يسلكا الطريق الغلط نحو الهدف، ولذلك فشلتا في تحقيق حركتهن الانتقالية؛ لأن هذا الفعل لم يكن ناتجا عن قناعة نفسية بل كانت الظروف من ساهمت على دفعهما لهذا السلوك، مما يتبين فشل برنامج التحول الهوياتي، تقول "باني": «... كانت رغبتني الأولى أن أصبح صبيًا، وقد آلمني فشلي في إقناع الله برغبتني تلك...»¹¹.

تكشف هاتان الشخصيتان عن مدى السيطرة الذكورية مما جعل المرأة تسعى دائما لأن تكون رجلا، حتى تتبوأ مكانتها في المجتمع، وبما أن الرجل جعل من نفسه المثال والقوة بالنسبة لهن، فقد باعت كل مشاريعهن بالفشل خاصة مشروع تبني الشخصية الذكورية، وأكبر مزية حققنها هي عودتهن إلى أحضان الرجل والوقوع في حبه، ولهذا نجد "لويز" بطلة "مزاج مراهقة" سرعان ما تخلع ثياب التنكر الذكوري وتتقن في تزيين جسدها "ليوسف عبد الجليل" الذي وقعت في حبه بعدما أيقظ فيها مشاعر الأنوثة المخدرة بداخلها، تقول: « أي رجل هذا الذي تعثرت بتاريخه، وجعلني أرثدي أنوثتي، وأحمل دفتر انفعالاتي وأركض إليه»¹².

ضعف البطلة الساردة أمام حبيبها في هذا المثال جعلها ترتدي أنوثتها من جديد، وتوَجِّل مشروعها التحولي إلى حين. فلويزا تتمزق بين أشكال من الحب المتعدد تعدد الشخصيات المتصارعة في ذاتها، إذ نجد حب "ليوسف عبد الجليل"، وحب "توفيق" الجيل الجديد، تقول "لويزا": «...كيف يتعلق شاب

ناضج مثله بـ "مراهقة" مثلي تعيش في خصام شبه دائم مع أنوثتها تحلم أغلب الوقت بأشياء يستحيل أن تحدث، بل وأكثر من ذلك»¹³.

تعيش البطلة دائما شعورًا غريبًا بعدم تحقيق ما تريد خاصة ما له علاقة بـ "يوسف عبد الجليل" والد "توفيق" الذي كان هو الآخر يبادلها مشاعر الحب التي لم تعرها اهتماما وبقيت متشبثة بحلم شبه مستحيل، تقول "لويزا": « في غرفتي تناثر الفرع منّي، وأنا أرقص مثل فراشة مقبلة على الحياة في لحظاتها الأولى. لكن لا أدري لماذا خطرت ببالي مقولة للكاتب سليم بوقنفاسة يقول فيها "عمر الفراشات قصير" وكأنه يقصد فرحي بالضبط»¹⁴.

هذا المقطع يثبت ما تعيشه "لويزا" من خوف لعدم تحقيق ما تطمح إليه خاصة على صعيد حبها "لعبد الجليل"، فهي تخاف خسارته، كما تخشى تكرار أزمة الحب المزيف الذي عاشته مع ابن عمها، إذ تجربتها السابقة علمتها الحذر، وهذه هي الحقيقة التي صدمت بها "لويزا" خاصة بعد سفر "يوسف عبد الجليل" إلى مصر، وتعرضه لطلق ناري أوشك أن ينهي حياته، ومثله "توفيق" الذي سافر إلى فرنسا، فكلاهما تركاها تتصارع مع ذكرياتها.

نلاحظ أن بطلات "فضيلة الفاروق" عارضن ظاهراً وكنوناً، لذلك حكم عليهن بالفشل، لأنهن لم يدركن أن جوهر الإنسان لا يمكن أن يغيره المظهر أو السلوك، فالبطلتان صورة للرفض لنظام الكون الذي أقامه الله تعالى.

وما يحيي الحس الأنثوي لدى كليهما هو لهيب الحب الذي أضرم دواخلهما، بالتالي، فإن محاولتهما الانسلاخ من كينونتتهما، واصطدامهما بالواقع جعلهما تعيدان النظر في أفكارهما، وما نستنتجه في الأخير هو: « أن حياة الكائن البشري متصلة الحلقات، يؤثر فيها السابق باللاحق، لإدراكنا أهمية تحقيق المراهقة السوية المتكيفة، وذلك أن المراهقة السوية تقود إلى مرحلة شباب سوية أيضاً»¹⁵.

المطلب الثاني: صورة المرأة الزوجة:

يعد الزواج سنة من سنن الحياة، وأساسا لتكوين الأسر والمجتمعات، فهو ظاهرة اجتماعية بالغة الأهمية للمضي قدما في الحياة وضمنا لاستمراريتها، عرفه "أبو زهرة" بقوله: « إنه عقد يفيد حل العشرة بين الرجل والمرأة، وتعاونهما ويحدد ما لكل منهما من حقوق وما عليه من واجبات»¹⁶.

فالزواج في الإسلام رابط مقدس، وميثاق غليظ بين الذكر والأنثى ينتج عنه المودة والسكينة وبقاء النوع، سنت له القواعد والقوانين التي تحفظه، وله عادات وتقاليد تختلف من مجتمع لآخر.

ولعل من الأسباب التي غالبا ما تؤدي إلى فشل الزواج أو عدم الاتفاق ونشوب الخلافات بين الزوجين، نجد: عدم اختيارها للشريك، وإجبارها على الزواج دون موافقتها، فالأعراف والتقاليد القديمة تنص على تزويج المرأة من الخاطب الأول، دون الأخذ برأيها، ومن هنا تبرز معاناة المرأة في حياتها الجديدة.

وقد تطرقنا إلى الزواج كقضية اجتماعية، لنكشف عن نظرة الروائية إلى هذه المسألة، إذ وجدنا أن نظرتها إلى الزواج سلبية؛ لذلك نجد في روايتها "اكتشاف الشهوة" تصور لنا المعاناة التي تعيشها الزوجة في مجتمع ذكوري لا يعبأ بالمرأة، فالزوجة تعيش نوعا من الرضوخ إلى أوامر الزوج دون أن تبدي رفضا أو امتعاضا، من هنا، تبرز قضية معاناة المرأة في حياتها الجديدة مع زوج لم تختاره وإنما تم الأمر عن طريق الفرض والإجبار، تقول في هذا الشأن "باني" بطله رواية "اكتشاف الشهوة": « جمعنا الجدران وقرار عائلي بال، وغير ذك لا شيء أخذ يجمعنا، فبني وبينه أزمة متراكمة وأجيال على وشك الانقراض...»¹⁷.

وبعد قرار العائلة التعسفي في تزويج "باني" "بمود" الباريسي دون احترام لرأيها ولا مراعاة لمشاعرها ولا لفارق السن بينهما، ساهم ذلك في اضطهادها وتهميشها، ومن خلال هذا المقطع نجد الروائية بصدد سرد مسألة الزواج القسري الذي يحول العلاقة بين الرجل والمرأة إلى جحيم حقيقي، وعبر استعانتها بلسان البطلة الساردة في الرواية تتوغل إلى أعماق القضية لتكشف عن العلاقة الجنسية بين الزوجين والتي تتحول في هذه الحالة إلى إغصاب، وكثير من الدونية فتنتشر بتفاصيل كثيرة لم تحسب حسابها "قمود" ابن الحضارة الباريسية الذي أساء معاملتها منذ الليلة الأولى لها في الحياة الزوجية، وبذلك تصور لنا نموذجا لفشل مثل هذه التجربة؛ فالعنف الذي تعرضت له "باني" في المطبخ من قبل زوجها الذي قام باغتصابها غير مبال بالألم الذي سببه هذا الفعل الخال من الإنسانية صورتها الروائية من خلال هذا المقطع: « وفي اليوم السابع، جن جنونه حاصرني ف المطبخ ومزق ثيابي ثم طرحني أرضا واخترقني...، لم يحاول أن يوجهني، لم يحاول أن يفهم شيئا من لغة جسدي ولم يأبه لمشاعرها، أنهى العملية في دقائق ورمى بدم عذيرتي مع ورق الكلينكس في الزبالة عجزت عن الحركة بعد تلك الغارة، ما اخترقني لم يكن عضوه كان اغتالا لكبريائي وفيما أشعل سيجارة انتصاره ليتم بها متعته قمت منكسرة نحو الحمام...»¹⁸.

لقد تفاجأت "باني" لطبيعة هذا الزواج الذي حطم كل ما فيها، وهو ما عكسه هذا المقطع، إذ يصور بدقة همجية الزوج الذي مزق ثيابها، وطرحها أرضاً، ثم مارس سلطته الذكورية بالقوة دون أدنى محاولة لفهمها، ليجلس أمامها مدخناً لسجارتته كفعل تباه أما أنوثتها المنتهكة، وهذا ما تحدثت عنه المبدعة في روايتها عن بطلتها التي عانت مع زوجها الذي لم يحاول فهم جسدها أو يراعيه، فتقول: « حين يبحث عن جسدي لا يهمه أن هذا الجسد كيان يشبه كيانه وأن لي غريزة ومشاعر... »¹⁹.

لقد صورت الكاتبة الزوج وهو يغتصب عروسه في أحلى أيامها، الشيء الذي جعلها تكره الزواج، الذي أصابها بالذعر، وعكس في ذاتها شعورها بالدونية والتهميش، تقول: « يوقظني لحاجة في نفسه، ثم يفعل كما في كل مرة بسرعة ودون أن يعطيني مجالا لأعبر عن نفسي (...) يسلمني للأرق »²⁰.
تصف البطلة معاناتها قائلة: « عذرتي التي سلبت وجسدي الذي انتهك وقلبي الذي ديس وتاريخ مرير من النفاق... »²¹.

هنا تتحطم "باني" بعد الفعل الشنيع بحق كيانه الأنثوي، والذي كسر كرامتها، وحطم أحلامها، ما جعلها تشعر بالانهيار جراء ما وقع لها في ليلة عمرها التي سلبت منها ولم تعشها كما حلمت بها، تقول: « كانت تلك ليلتي الأولى بدون رجل، كانت ليلة تنزف بين الفخذين إهانة قاتمة، ليلة لا معنى لها، حولتني لكائن لا معنى له... »²².

هذه المأساة التي عايشتها "باني" جعلتها تكتشف حقيقة الحياة الزوجية الخالية من العاطفة، تقول:

« يزمجر في وجهي

أنت مرتي..

أجيبه وأنا مصدومة.

ولكن نحن في رمضان، وأن صائمة.

يعلو صراخه، ويزداد عويلي وأنا أستنجد وبوالدي:

يا بابا... يا أما...

يزداد صراخي

ييزق عليا »²³.

كانت معاملة "مود" لباني" قاسية، إذ كان لا يأبه لشيء من انتهاك حرمة الشهر الفضيل، حيث كان يدخل معها في علاقات محظورة في شهر التوبة ما جعلها تتصدّم وتنهار كون الاغتصاب الزوجي من أبشع أنواع الاغتصاب؛ فهو ليس نتاج رغبة الزوجة. فبعد هذه الحادثة صدمت "باني" بهذا الزواج الفاشل الذي لم تذق منه سوى الذل والإهانة، تقول: « حقارتي تبدأ من هنا هذا الزواج الذي لا معنى له، من هذه المغامرة

التي لم تشهد غير كثير من الذل في حياتي، وكثيرا من الانهزامية والتلاشي، والانتهاه في غاية السخف كانت تحدث لي أمور لا أفهمها، أمور تجعلني أنتهي، وأتوقف عند لحظة اتخاذ لقرار الزواج»²⁴.

هنا تعاود البطلة استذكار اللحظات التي كانت تنتظر فيها عريسا يليق بحجم انتظارها، تقول: «خمس وثلاثون سنة وأنا أنتظر "عريس" يليق بحجم انتظاري ومواهبي. ورهافة مشاعري، وإذا بي كما يقول المثل: صام وفطر على بصلة»²⁵.

تذبل البطلة "باني" يوما بعد يوم، ويزداد شعورها حدة كلما أدركت أن صبرها لن يحقق مبتغاها، تقول في ذلك: «مود... بالمختصر المفيد لم يكن لي»²⁶.

حسب وصف الساردة هو رجل لا يجيب على كل أسئلتها، إذ تقول أنه كثير ما يعلق أسئلتها على شماعه من الصمت وينصرف إلى عمل ما يخطر على باله فجأة، ما خلق بينهما مساحة تلغي التفاهم والحوار وخلق المشاكل، فتقول يأكل أو يدخل الحمام أو ينام حين لا يعرف أن يجيب، وكان صعبا عليها أن تتفاهم معه ولغته وخاصة التخاطب معه. وبعد مرور فترة من هذا الزواج تشعر "باني" بثقل الأيام وتلاشي عمرها، إذ أصبحت حياتها بلا معنى في بلد ليس ببلدها ومع رجل ليس الرجل الذي أرادت وحلمت به، حيث كل الظروف كانت ضدها، فتقول: « في الحقيقة، الفشل في الزواج يبدأ من هنا، حين نرى الأشياء بمنظورين ليس فقط مختلفين بل متناقضين»²⁷.

إن أساس كل العلاقات التفاهم فكيف لزواج بدون تفاهم وهو العنصر المهم الذي افتقدته "باني" في علاقتها الزوجية بـ "مود ولعل سبب هذه المشاكل كلها هو ذلك القرار العائلي المتعسف كما تصفه هي. أما سبب الثاني فترجعه لفارق السن بينهما فتقول "فضيلة الفاروق" على لسان بطلتها "باني": « ما أفسى أن نسلم أجسادنا باسم وثيقة لمن يقيم ورشة عليها أو بحثا عن المتعة، وكأننا ورقة يانصيب من النادر أن تصيب»²⁸.

فالزواج حسب "باني" أصبح مصدرا لضجر والذل والحرمان ما دفعها للبحث عن الحب والتقدير خارج أسوار هذا المنزل، فتلتقي بـ "إيس" الذي تعجب به وتقع في حبه لما لاقته من تقدير واحترام من هذا الرجل ما جعلها تنسى أنها امرأة متزوجة، فاعتبرته طوق نجاة من معاناتها داخل أسوار البيت.

تعتمد "فضيلة الفاروق" إلى تصوير معاناة المرأة جراء الزواج القسري الذي يفرض عليها وما ينتج جراء هذه العلاقة، ففي هذه الرواية تظل علاقة المرأة بالرجل التقاء لقطبين متناقضين المرأة بصورتها الايجابية والرجل بصورته السلبية، فالروائية تصور لنا الرجل هنا على أنه الورطة والغلطة التي يجب الخروج منها ومشروع محكوم عليه بالفشل، ما جعل المقبلات على الزواج ينتابهن شعور يشبه ذلك الذي ينتاب المحكوم عليه بالإعدام أو السجن مدى الحياة.

فهي هنا بتصويرها هذا دست السم في أذهان الفتيات المقبلات على الزواج ما جعلهن يتهربن منه دون أن يدركن أنه نصف الدين وأن الرجل سند لهنّ فلا وجود لمرأة دون رجل ولا رجل بدون امرأة فهي العملية الإنسانية بوجهيها، فالمرأة أخذت من ضلع الرجل والرجل ولد من رحم المرأة ما يجعل أمر فصل أحدهما عن الآخر أمر استحالة.

المطلب الثالث: صورة المرأة الأم:

فالأم لها دورٌ أساسي في تربية أولادها، حيث أن كل العبيء يقع على أكتافها. رغم كل الصعاب التي تواجهها تظل صامدة تكافح لأجل أولادها متناسية كل أوجاعها وجراحها، ففي رواية "مزاج مراهقة" صورة حية للأم المناضلة الصامدة في وجه كل المعاناة فتحدثت الكاتبة على لسان "لويزا" عن الأم التي فقدت فلذة كبدها أثناء الأحداث الدموية التي وقعت في الجزائر، تقول: « تلك الأم التي تستحي حين ينتفخ بطنها... الذي تخفيه هوناً وتضعه هوناً، وتحلم به رجلاً... التي تتقاسم معه وحده عرقها وألمها وأوجاعها... التي تحرم نفسها من أجل لقمتها وتلغي نفسها من أجل كرامته... تلك لأم لا يمكن إلا أن تكون أنماً جزائرية تمارس أمومتها سرّاً... ولهذا تعاقب اليوم تحت سماء لا تحيط بها الأسلاك بلغت جثة أحلامها تلك جثة ابنها »²⁹.

تصف الساردة ظاهرة الحزن التي تلاحق أيضاً أم "لويزا" في هذه الرواية فهي امرأة سيئة الحظ دائمة الحزن والتي تحمل مسؤولية البيت وتربية الأولاد لوحدها بسبب غياب زوجها المغترب الذي كان غائبا أيضاً من خلال علاقاته المشبوهة مع النساء، تقول "لويزا" عن زواج والديها... « والدتي التي لم تكن بمستوى هوائيات والدي... والدي كان وسيماً في نظري كان وسيماً جداً وكثيراً ما كانت تبلغنا أخبارا عن غرامياته عن طريق بعض المغتربين ولا أذكر أن والدتي كان يهزها الأمر.

إذ كان حزنها غير متعلق بخياناته المتكررة. وإنما بذلك الوعد القديم الذي حدثه يوم تزوجها ليعلقها على ورقة واجب، لم تكن تعني له أكثر من ورقة صالحة لمسح... حذائه »³⁰.

تصور لنا رجلاً متحرراً لا يحاسبه شخص عن أخطائه مخلفاً وراءه امرأة تتحصر وتتمنى أن تكون حبيبته قبل أن تكون زوجته وهذا بحد ذاته حزن يداهمها في حياتها، تقول "لويزا": « وعمر والدتي يلاحقني إلى كل زوايا لم أرى ابتسامتها إلا نادراً، لا يهملها فرح أو عيد أو مناسبة عن تلك المناسبات التي تشتهي النسوة حضورها لتغيير فستان في كل ساعة أو إطلاق سراح النميمة على ألسنتهم أو المزاح، أو اقتناء أسرارهن الحميمة.

اختلفت عنهم دائماً بعبوسها وذبولها وحزنها... بخيل إلي أنها لا يمكن أن تعيش إلا إذا تكررت بحزنها ذلك وبحياتها اليومية التي لا تنهي وجلساتها المسائية أمان أي إنتاج مصري في التلفزيون تتحجج بمشاهدة الحزينة لتبكي حزنها هي كانت ركاماً من الحزن »³¹.

تصف "لويزا" أمها "بركام" من الحزن نتيجة لما تعيشه من معاناة وآلام في صمت إذ تدرك أنه قدرها ولا مفر منه، فهي تعيش معاناتها عكس سائر الأمهات، فهي تظل المثل والقذوة، ناجحة كانت أم فاشلة لا أحد يضاهيها، تقول الكاتبة: «كنت أشبه والدتي كثيراً»³².

وهو ما جاء على لسان "لويزا" أيضاً في قولها: «والدتي التي أشبهها في كل شيء، في دموعها في ابتسامتها، في حزنها الدائم»³³.

يرى الأولاد الأم على أنها مثلهم الأعلى الذي يقتدون به، فهي مدرستهم الأولى، لذا رفع الإسلام مكانتها، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الجنة تحت أقدام الأمهات»، فالمرأة منشئة الأجيال، وشريكة الرجل في الحياة، لذا صورت الأم بمنظر القوة، والمضحية من أجل سعادة أبناءها.

المبحث الثاني: صورة المرأة المطلقة و التابعة

المطلب الأول: صورة المرأة المطلقة:

إن الطلاق ظاهرة شائعة وموجودة في كل المجتمعات بنسب متفاوتة، وهو أمر عرفته البشرية من قديم الزمان، وكانت له طرق وأشكال تختلف من بيئة إلى أخرى، ومن عصر إلى آخر، يمثل فسخ عقد الزواج وإنهاء العلاقة الزوجية بين المتزوجين.

لتبقى المرأة تعاني من تبعاته خاصة الشرقية، إذ تجد صعوبة في التكيف مع مجتمعاتها، فبعد الطلاق يهتز كيان المرأة وإن كانت هي من اختارته وتجسد هذه الشخصية بطلّة رواية "اكتشاف الشهوة" "باني" التي عانت من فعل الطلاق، تقول: «في الحقيقة كنت أعرف ما أريد، أما هم فقد كانوا يفكرون في أشياء كثيرة متنوعة وكلها تتعلق بمصيري وإيجاد تبريرات لكوني مطلقة في البيت، مطلقة تعني أكثر من أي شيء آخر، امرأة تلخصت من جدار عذريتها الذي كان يمنحها من ممارسة الخطيئة، امرأة بدون ذلك الجدار، امرأة مستباحة، أو عاهرة مع بعض التحفظ»³⁴.

تتلقى المرأة معاملة سيئة من قبل الأسرة والمجتمع اللذين يغلقان أمامها كل سبل النجاة، إذ تفرض العائلة عليها العودة إلى طليقها والتذلل له، أو تبقى في البيت معذبة من طرف السلطة الذكورية، وهذا التصرف تفسره ردّة فعل "إلياس" بعد عودة شقيقته "باني" إلى المنزل، إذ نراه يحاول قتلها، وتمزيق جثتها، وإن أرادت الدفاع عن نفسها بتبرير موقفها لا يسمح لها بذلك، تقول "باني": «ما الذي يزعجكم إن خسرت أو ربحت الأمر يعني، ولكن إلياس ولم يسمح لي بمواصلة الكلام، صفعني حتى وقعت أرضاً، ثم أمسكني من شعري وراح يزجر ستعودين إليه في أقرب فرصة وستركعين أمامه مثل كلبة، وستعيشين معه حتى تموتين»³⁵.

أي أن المرأة تعيش عدواناً من طرف العائلة، وذلك خوفاً من نظرة المجتمع التي لا ترحم المطلقة؛ فالطلاق في المجتمعات الشرقية عنوان للعهر وهي الحقيقة التي اصطدمت بها "باني" بعد اتخاذها لهذا القرار، إذ نجد أختها "شاهي" تتصحها بالتراجع عن الطلاق بقولها: «كيف ستعيشين مطلقة وسط الرعاع، عندما سترين الرجال كيف سيتحرشون بك، وكيف ستحاك حولك الحكايات وكيف ستصبحين عاهرة في نظر الجميع دون أن يرحمك أحد»³⁶.

أشارت الساردة إلى قضية مهمة وهي أن انفصال المرأة عن الرجل يجعل منها عاهرة في أعين أفراد المجتمع والعائلة لكونها فقدت عذريتها التي كانت تمنعها من ارتكاب المحرمات، لأنها حسب نظرهم قبل الزواج كائن ضعيف، ولذا لا يتركن بحرية للاهتمام برغباتهنّ وعواطفهنّ في اتخاذ قرارات مصيرية كالزواج، تقول "مود": «ثم استيقظت مرة أخرى على صوت "مود" يكلم فتاته على الهاتف، تنهأ لي صوته من الحمام وهو يقول نامي الآن يا قطتي الصغيرة غدا ينتظرنا يوم طويل»³⁷.

تشعر هنا "باني" كأى شيء لا معنى من وجوده، ما يجعلها تتخذ قرار الطلاق من زوجها. تلج الروائية من خلال تقنية التصوير ضمن النص الروائي الذي تتناوله إلى متاهات عميقة لتحليل العلاقة بين الرجل والمرأة راسمة إياها بتفاصيلها وأبعادها النفسية والاجتماعية والعاطفية والجنسية، إذ صورت بطلات مستضعفات يخضن صراعات مع المجتمع الذكوري، محاولات رفع الظلم عنهن، وإقرار حقوقهن المسلوبة عسى وضعهن يتحسن.

المطلب الثاني: صورة المرأة التابعة:

المقصود بالتبعية هي استسلام المرأة للتقاليد الاجتماعية، ولسلطة المجتمع، فالتفكير الاتباعي الذي ينهجه عدد من الأشخاص ما هو إلا فكرة جاهزة وهي نتيجة عادات وتقاليد وموروثات ثقافية ودينية، يقول "فوكو" في هذا الصدد: «إن السيطرة التي يمارسها الرجل في المجتمعات الشرقية على المرأة تعتبر من أبشع أنواع الظلم والاستبداد في تاريخ البشرية عامة فالمرأة تلعب دور التابع والمقاد إنه حتى في الجماع يصبح حقلاً للممارسة تفوق، التفوق الذي يضمنه الجماع من حيث هو فعل وسيطرة وولوج»³⁸.

فالرجل هو الأمر الناهي يحوز كل امتياز، أما المرأة فهي دائماً التابعة له، والخاضعة لهيمنتها الذكورية، وهذا ما جعل الوجه الحقيقي للدين يظل مغيباً بفعل فاعل لفترات طويلة في مجتمعاتنا.

نجد أن "فضيلة الفاروق" في روايتها تاء الخجل" تصور لنا نموذجاً للمرأة الجزائرية وما تعانيه من قمع وتهميش في مجتمع ذكوري متسلط يعلن غير ما يبطن، فتعتمد الكاتبة في أعمالها الروائية إلى إدراج الشخصيات بصفة سلبية، كي توجه رسالة صارخة إلى الرجل تدعوه فيها إلى إعادة النظر في مضمون المرأة ككائن ذو قيمة في المجتمع.

تمثل هذه الشخصية "رزيقة" الفتاة السلبية التي أنهت حياتها بالانتحار كحل نهائي لوضعها المزري بعد تعرضها للاغتصاب من طرف الجماعة المسلحة، ليكلل هذه الفعل بثمرة لم تردها، ما جعلها تُقدّم على إنها حياتها بهذا الشكل، تاركة وراءها رسالة توصي فيها بالتبرع بأعضائها للمرضى المحتاجين، يقول الطبيب وهو يخاطب "خالدة": «المنتحرة حين عملت بذلك قررت إنهاء حياتها وما أثر في فعلا الرسالة التي تركتها.

- رسالة؟

نعم تركت رسالة باسمي توصي بالتبرع بكل أعضائها للمرضى المحتاجين لذلك يبدو أنها متعلمة، حتماً جامعية للتصرف هذه التصرف»³⁹.

رغم إقدام "رزيقة" على لانتحار نتيجة ضعفها واستسلامها، إلا أن في فعلها الثاني دلالة على وعيها متعلمة ومثقة، هذا ما قاله الطبيب في حوار مع خالدة عن الرسالة ومحتواها فهو الآخر تصورها متعلمة وجامعية وقد أصاب في ذلك فهي حقا متعلمة درست في إحدى الجامعات وهذا ما جاء على لسان "يمينة" وهي تسرد ما جرى "لرزيقة" قائلة: «... هي نفسها تعرفت من بين الارهابيين على زميل لها كان معها في الجامعة»⁴⁰.

على الرغم من أن المرأة تابعة ومهمشة، ومستسلمة لقدرها، إلا أنها الوحيدة المسؤولة عن ذلك، وهذا الفعل بإرادتها كونها لم تجد الرغبة في التعبير والخروج من بوتقة التبعية. وكذلك العادات والتقاليد والأعراف في المجتمع سببا في آلام المرأة ومعاناتها وتبعيتها وهو ما حدث مع الجدة، تقول الكاتبة على لسان خالدة:

«منذ ولادتي التي ظلت معلقة بزواج ليس تماما.

منذ جدتي التي ظلت مشلولة نصف قرن من الزمن.

أثر الضرب الذي تعرضت له من أخي

زوجها ووصفت له القبيلة.

وأغض القانون عينه منذ القدم... لا شيء تغير.

سوى تنوع وسائل القمع وانتهاك كرامة النساء»⁴¹.

من هنا نلاحظ الوضع الذي كانت تعيشه المرأة، والذي يظهر من خلال الجدة التي تعرضت للعنف من طرف أخ زوجها، ما جعلها مشلولة لا تقوى على الحركة وهذا داخل إطار السلطة والحكم الذكوري.

الخاتمة:

- عبرت "فضيلة الفاروق" في رواياتها عن هموم المرأة ومشاكلها ومطامحها وقدمت صوراً مختلفة عنها، وبعد اطلاعنا على رواياتها، والتغلغل في ثناياها توصلنا لجملة من النتائج أهمها:
- تميزت كتابات "فضيلة" بالجرأة والصراحة، وقوة الطرح، والمتانة اللغوية.
 - تناولت الكاتبة مواضيعها بطريقة فريدة، تفرض على القارئ متابعتها بإلحاح من بدايتها إلى نهايتها.
 - اهتمت الكاتبة بقضايا المرأة لما يشكله ذلك من حساسية على الصعيد الاجتماعي، خاصة في إطار مجتمعات منغلقة ذاتياً لا تراعي سوى التقاليد والعادات.
 - قدمت "فضيلة الفاروق" رؤية نقدية للمجتمع الجزائري الذي جعل المرأة في مرتبة أدنى من الرجل وحرّمها أغلب حقوقها.
 - إن كل شخصية من شخصيات الروايات حملت أبعاداً دلالية وفق ما يخدم فكرة أرادت الروائية إيصالها.
 - مثلت الشخصيات البطلية في روايات "فضيلة الفاروق" النموذج النسوي الثائر الذي أخذ على عاتقه الدفاع عن حقوق المرأة، والنضال ضد الظلم والتعسف الذين تتعرض لهما باستمرار من لدن الرجل.
 - اتخذت "فضيلة الفاروق" من الكتابة وسيلة للبوح عن ما هو مسكوت عنه، وهي بمثابة مرآة عاكسة لطبيعتها الداخلية.
 - طرح "فضيلة الفاروق" للممنوع في كتاباتها لا يعني الترويج له، وجذب القراء بل على العكس من ذلك، تحاول تصحيح بعض المفاهيم المهضومة بشكل خاطئ.
 - وظفت الكاتبة الكثير من التقنيات في نصوصها مما انعكس بالإيجاب على مستوى البناء الفني والتشكيل اللغوي وعلى مستويين الدلالي والأفق القرائي.
 - المبدعة تمتلك رؤية فنية عميقة، ووعياً ناضجاً، وحساً بوليفونيا، مع موهبة خالصة تتضح إبداعاً، وجزالة في الأسلوب، ومتانة في اللغة.

الهوامش:

- ¹- فضيلة الفاروق، تاء الخجل، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت، ط1، أبريل 2003م، ص 11-12.
- ²- رغدة شريم، سيكولوجية المراهقة، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة عمان، الأردن، ط1، 2009م، ص22.
- ³- فضيلة الفاروق، مزاج مراهقة، دار الفرابي للنشر، بيروت، لبنان، ط2، 2007م، ص 55.

- 4- المصدر نفسه، ص 55.
- 5- المصدر نفسه، ص 12.
- 6- فضيلة الفاروق، اكتشاف الشهوة، رياض الرئيس للكتب والنشر، ط1، 2005م، ص 14.
- 7- المصدر نفسه، ص 15.
- 8- المصدر نفسه، ص 15.
- 9- المصدر نفسه، ص 16.
- 10- اكتشاف الشهوة، ص 15.
- 11- المصدر نفسه، ص 14.
- 12- مزاج مراهقة، ص 90.
- 13- مزاج مراهقة، ص 120-121.
- 14- المصدر نفسه، ص 201.
- 15- عبد الرحمان محمد العيسوي، المراهق والمراهقة، دار النهضة العربية، بيروت، ط1، 2005م، ص 209.
- 16- أبي البركات عبد الله النصفي، كنز الحقائق مع شرحه الفائق، تح: أحمد غاية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط4، 2000م، ص 228.
- 17- اكتشاف الشهوة، ص 07.
- 18- المصدر نفسه، ص 8-9.
- 19- المصدر نفسه، ص 91-92.
- 20- اكتشاف الشهوة، ص 11.
- 21- المصدر نفسه، ص 80.
- 22- المصدر نفسه، ص 09.
- 23- اكتشاف الشهوة، ص 60.
- 24- المصدر نفسه، ص 09.
- 25- المصدر نفسه، ص 10.
- 26- المصدر نفسه، ص 10.
- 27- اكتشاف الشهوة، ص 11.
- 28- المصدر نفسه، ص 82.
- 29- مزاج مراهقة، ص 150-151.
- 30- مزاج مراهقة، ص 14.
- 31- المصدر نفسه، ص 13.
- 32- تاء الخجل، ص 11.
- 33- مزاج مراهقة، ص 23.

³⁴ - اكتشاف الشهوة، ص 86.

³⁵ - المصدر نفسه، ص 87.

³⁶ - اكتشاف الشهوة، ص 89.

³⁷ - المصدر السابق، ص 43.

³⁸ - ميشيل فوكو: استعمال الذات، ترجمة جورج أبي صالح، مركز الإنماء القومي، بيروت، د. ط، 1991م، ص 151.

³⁹ - تاء الخجل، ص 80.

⁴⁰ - المصدر نفسه، ص 85.

⁴¹ - تاء الخجل، ص 12.

قائمة المصادر والمراجع:

1- أبي البركات عبد الله النصفي، كنز الحقائق مع شرحه الفائق، تح: أحمد غاية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط4، 2000م، ص 228.

2- رغدة شريم، سيكولوجية المراهقة، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة عمان، الأردن، ط1، 2009م، ص22.

عبد الرحمان محمد العيسوي، المراهق والمراهقة، دار النهضة العربية، بيروت، ط1، 2005م، ص209.

3- فضيلة الفاروق، تاء الخجل، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت، ط1، أبريل 2003م، ص 11-12.

4- فضيلة الفاروق، مزاج مراهقة، دار الفرابي لنشر، بيروت، لبنان، ط2، 2007م، ص 55.

5- فضيلة الفاروق، اكتشاف الشهوة، رياض الريس للكتب والنشر، ط1، 2005م، ص 14.

6 -ميشيل فوكو: استعمال الذات، ترجمة جورج أبي صالح، مركز الإنماء القومي، بيروت، د. ط، 1991م، ص 151.